

خطبة للدكتور محمد توفيق رمضان البوطي

بماذا يتحقق النصر؟

أما بعد فيا أيها المسلمون: يقول الله جلّ شأنه في كتابه الكريم:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ فَبُذِلَ لَهَا مِنْ دُونِ الْمَسْجِدِ لِشَرِّ آلِ عَادَ الْكَافِيَةَ أَيُّهَا لَيْسَ بَكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّتُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

ويقول جلّ شأنه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

ويقول سبحانه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

ويقول جلّ شأنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

يقول النبي ﷺ: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه)

ويقول النبي ﷺ: (طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية)

ويقول ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

أيها المسلمون:

هذه العاصفة التي هاجت من حولنا، واجتمعت فيها قوى البغي والطغيان - قوى الشر - يؤلب بعضهم بعضاً للنيل من هذا البلد، للنيل من هذه الأمة متذرعين بذرائع هم أدرى بحقيقتها، هم أحجوا نار الفتنة، هم زودوا أولئك الذين خرجوا على الدولة وعلى البلد وعلى الوطن، هم زودوهم بالسلاح، هم حشدوا لهم الرجال، حتى صارت بلادنا مجالاً لصراعهم هم على أرضنا نحن. والضحايا أبناء وطننا، الضحايا إن قلنا من هؤلاء فهم أبناؤنا، وإن قلنا من هؤلاء فهم أبناؤنا، أثاروها فتنة بين أبناء الأمة، بل بين أبناء الحي، بل بين

أبناء البيت الواحد. هذا موالٍ وذاك معارض، ثم حشدوا شذاذ السجون وروادها ودفعوا بهم إلى بلادنا ليدمروا هذه البلاد وليحرقوها، وليقضوا على هذه الأمة؛ لأنها ينبوع ثرٍ نشر في العالم أعظم معاني الهداية والإرشاد. سلوا العالم كله: من أين يمكن أن تنهلوا المعاني الإسلامية الصحيحة؟ سيكون الجواب حيثما ذهبتم: لا تثق بالإسلام إلا إذا كان ينبوعه من بلاد الشام. ضاقت صدورهم بذلك، ضاقت صدورهم أن يُعرَف الإسلام الحق، أن يعرف الإسلام المعتدل. أحد طغاتهم يقول "إن مكمناً الخطر في سوريا أنها مركز الإسلام المعتدل".

نعم.. هم يريدون إسلاماً متطرفاً، لأن الإسلام المتطرف يشوه الإسلام، ويدمر الأمة ويقوض الحضارة، لأن الإسلام المتطرف يُستثمر لكي يُنفر أبناء بلادهم من هذا الإسلام ويكره أبناء بلادهم بهذا الإسلام.

حضرت جلسة كبير وزرائهم في بلادنا هذه، إنه وزير خارجية بريطانية، جاء يزور سوريا، مظهراً إعجابه بالتعايش الحضاري الذي تنعم به بلادنا، لكنه لعله كان يخفي دراسة لواقع بلادنا، وكيف يمكن أن يقضى على هذا الوداد ويقضى على هذا التعايش.

ألبوها فتنه، وأثاروها عاصفة؛ ولكن **(إِنَّمَا ذِكْرُكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)** لن نخاف من جموعهم ولا من حشودهم، ولكننا والله نخاف من معاصينا، نخاف من آثامنا من ذنوبنا أن تكون سبباً لبلاء يحيق بنا، أما هم.. إنهم عبيد لمن هو ربنا، هم عبيد لمن خلقنا، هم في قبضة الله عز وجل، وليسوا مالكيين من الأمر شيئاً **(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)** فلا يجبن أحد، ولا يفزعن أحد من أي قوة طاغية باغية في الأرض، إذا كنتم مع الله عز وجل، إذا كنتم متوكلين على الله سبحانه.

خسئوا.. جمعوا جموعهم ضد النبي ﷺ **(إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)** تلك المعركة انتهت، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً سلط الله عليهم أبسط شيء يمكن أن تعرفه في هذه الدنيا؛ النسيم، حول الله النسيم إلى عواصف فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فمضوا فارين خائفين من أي شيء؟ من النسيم، من الهواء؛ لا من السيوف ولا من القنابل.

أجل عندما تكون قلوبنا معلقة بالله لا يمكن لقوة في الدنيا أن ترعبنا، وعندما تكون قلوبنا معلقة بالولاء لدولة كذا، أو بالخوف أو بالطمع بدولة كذا؛ فإن من حق قلوبنا عندئذ أن تكون رعدة جبانة تخاف من هؤلاء،

وتخاف من أولئك، بماذا يخوفوننا؟ بالموت!! والله إنا لنتنظر الشهادة في سبيل الله. وما أعظم أن نلقى الله عز وجل شهداء في سبيله (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) تلك بشارة الله عز وجل للشهداء، بماذا يخوفوننا؟ ولكني أقول.. خسئوا هم لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن أن يملكوا لنا أي نفع أو ضرر.

كونوا مطمئنين، كونوا على ثقة بالله سبحانه تعالى، فلا تؤثرن بكم تلك الزواجع، فما هي إلا عواصف تخيف قلوبهم وقلوب حلفائهم.

نحن نقول: اللهم عليك توكلنا، إليك أنبنا، عليك توكلنا أنت مولانا، ولا مولى لنا سواك لن نستنصر بقوة أرضية، نحن نتوكل على الله ونستمد منه الفرج، نستمد منه النصر، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، المنافقون لا يشعرون بذلك.. لماذا؟ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فمن حقهم أن لا يدركوا هذه الحقيقة التي نتحدث عنها. هذه هي النقطة الأولى.

النقطة الثانية: لا أدري لماذا أصبنا بما أصبنا به؟ الحقيقة أن السبب الرئيس في ذلك هو بعدنا عن الله، بعدنا عن الأخلاق الإسلامية، الأخلاق الإسلامية حولت الأمة المتعادية المتناكرة إلى أمة متحابّة متآزرة (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) لقد صاغ ربنا تبارك وتعالى على يد نبيه ﷺ هذه الأمة أعظم صياغة (وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) يقاسمون إخوانهم الرغيف الذي يأكلون، يشاطرون إخوانهم البيت الذي يسكنون، ومن عجب أن تجد هذه الأخلاق نفسها اليوم سبباً لنجاة أمة من مصيبة حاقت بها، وهي أمة وثنية. أمة فهمت أن الأخلاق الإنسانية سبب في النصر فتمسكت بأسباب النصر، مع كونها أمة مشركة. ونحن الذين ندعي الإسلام. ونسجد بين يدي الله، ونرتاد المساجد؛ تجد أننا قد تخلينا عن تلك الأخلاق، فتمكنت فينا الأثرة والأنانية وكاد بعضنا لبعض؛ بل ويشمت بعضنا ببعض، الذي يشمت بهذا الوطن أن يصاب، هو ليس من هذا الوطن، وليس من بني آدم. هو من الوحوش الضارية؛ بل إن الوحوش لتنبذ أمثال هؤلاء. الذي يسر بأن يصاب وطنه من أعدائه؛ ممن يحمي إسرائيل.. حماة إسرائيل يريدون بنا شراً فيصفقون لهم، أمر عجيب!! أوصلت الأمة إلى هذا الدرك إلى هذا القاع..؟ إلى هذه الحالة الدنيئة من الأخلاق العجيبة! أمر ما كنا نتصور أن تهبط أمتنا فيه إلى هذا الدرك! أن يشمت مسلم بتسلط قوى البغي التي ترعى دولة البغي والعدوان في أرضنا في فلسطين تلك الدولة المسخ التي تسمى إسرائيل، يسرون أن تكون تلك الدول التي تحمي هذا الكيان

الإجرامي الطاعني المعتصب للمسجد الأقصى المعتصب لفلسطين، فيسرون أن يأتوا أولئك ليدمروا بلادنا ويقوضوا وطننا.

هذا أعجب ما يمكن أن يقع، ولكن لا عجب (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

أقول هذه الظاهرة الأولى، الظاهرة الثانية الأنانية التي أرجو أن نعالج أنفسنا من هذه الأنانية.

أيها المسلمون:

نحن بالإيثار نتصير، نحن بالتحابب نتصير (المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يحقره)، (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أحد الصحابة قام يحمل على كتفه أحمالاً فأعطوه أجره صاعين من تمر، أخذ صاعاً يكفي لأهله، ومضى بالصاع الآخر إلى النبي ﷺ يقول يكفيني يا رسول الله صاع، والآخر ماذا أفعل به؟ قال: (انثره صدقة بين أصحابك) هكذا علمنا إسلامنا نشاطر إخواننا ما معنا، لا نتزاحم على الأفران لكي نأخذ ما يكفينا لشهر، خذ ما يكفيك ليوم. ما هذه الأنانية؟ وما ضعف الثقة بالله هذا؟ ما هذه الأثرة؟ هذا مرض ينبغي أن نطهر أنفسنا منه، يكفيك ما يمكن أن يكفيك لهذا اليوم ليومين، هذا الخوف عجيب، ممّ تخاف؟ (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ). تخافون من أميركا! هل تريد أن تعيش وحدك، لن تعيش وحدك الموت سيأتي للجميع والنصر سينال للجميع.

نحن نقول إن أمة أصيبت بداء الأنانية لن تنتصر. أخشى عليها أن تصاب بسبب أنانيتها، وقد أصبنا بما أصبنا به بسبب خذلاننا لبعضنا، بسبب أنانيتنا، بسبب تولينا أعداءنا على إخواننا، واستنصارنا أعداءنا على إخواننا.

أيها المسلمون:

الإصلاح يبدأ بالفرد، ليبدأ كل واحد منا بنفسه، وليعط ما زاد عن حاجة يومه لجاره.. لأخيه.. لصاحبه، لا يزاحم أحدنا الآخر.

في اليابان عندما أصيبوا بالتلوث النووي بسبب الإعصار - أولئك الوثنيون أتتلع منهم؟! هم ينبغي أن يتعلموا منا، ولكننا تركنا كتاب الله فأصبنا بما أصبنا به - أحدهم إذا كان يكفيه الرغبة لا يأخذ الرغبة،

يأخذ الرغيف ويمضي، إذا كان يكفيه الكأس يأخذ الكأس ويمضي، وفي اليوم الثاني يقف ليأخذ الكأس الآخر. هكذا كانوا.. وهكذا استطاعوا أن يتغلبوا على الأزمة.

أقول: إن تلك الأخلاق يمكن أن يتغلب بها الكافر والمسلم على الأزمة، وإن أخلاق الأنانية يمكن أن تؤدي بالمسلم الذي يدعي أنه مسلم إلى الهزيمة والمصيبة. لا تظن أن دعواك الإسلام، وسجودك بين يدي الله يكفي، يجب أن تتخلق بأخلاق الإيمان. إنه يجب أن نتخلق بالإيثار بالعطاء بالبذل... بمحبتك لإخوانك، يجب أن نتعامل مع الأزمة بنفوس سامية لا بنفوس دنيئة، بقلوب تثق بما عند الله تعالى وأن (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) صنائع المعروف: إثارك لأخيك، قناعتك بما عند الله ورضاك بما قسم الله عز وجل لك يجعلك إن شاء الله منتصراً. أما الطمع والجشع فهو أول خطوات الهزيمة، وأول مزالق المصيبة التي يمكن أن تقوض أمة وتدمر وطناً وتنتهي حضارة.

أسأل الله أن يلهمنا أخلاق محمد ﷺ أخلاق الإيمان أخلاق الإسلام وأن يطهرنا من أخلاق الأنانية والأثرة، وإن النصر لقادم إذا طرقنا أبوابه بالأخلاق الحميدة بذكر الله بالالتجاء إلى الله والتضرع إلى الله (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) بالتضرع تنصرف المصائب وينصرف الكيد وينصرف التآمر وتنتصر الأمة إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

